يوسف لما انطوت عليه من تلك القصص لضعف معرفتهن ولنقص عقولهن
وادراكهن وقد قال عليه السلام مخبرا عن نفسه باستيجاره لرعاية الغنم
في ابتداء حاله وقال ما من نبي الا وقد رعى الغنم واخبرنا الله بذلك
عن موسى عليه السلام وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة لمن ذكره على وجهه
بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير بل كانت عادة جميع العرب
نعم وفي ذلك للانبياء حكمة بالغة وتدريج لله تعالى لهم الى كرامته و
تدريب برعايتها لسياسة اممهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة في الازل
ومتقدم العلم وكذلك قد ذكر الله يتمه وعيلته على طريق المنة عليه والتعريف
بكرامته له فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتداه والتعجب
من منح الله قبله وعظيم منته عنده ليس فيه غضاضة بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته
اذ اظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومن ناواه من اشرافهم شيئا
فشيئا ونمى امره حتى قهرهم وتمكن من ملك مقاليدهم واستباحة ممالك
كثير من الامم غيرهم باظهار الله تعالى له وتأييده بنصره وبالمؤمنين والف بين
قلوبهم وامداده بالملائكة المسومين ولو كان ابن ملك او ذا اشياع متقدمين لحسب
كثير من الجهال ان ذلك موجب ظهوره ومقتضى علوه ولهذا قال هرقل
حين سأل ابا سفيان عنه هل في آبائه من ملك ثم قال ولو كان في آبائه ملك
لقلنا رجل يطلب ملك ابيه واذ اليتم من صفته واحدى علاماته في الكتب
المتقدمة واخبار الامم السالفة وكذا وقع ذكره في كتاب ارمياء وبهذا
وصفه ابن ذي يزن لعبد المطلب وبحيرا لابي طالب وكذلك اذا وصف بانه
امي كما وصفه الله به فهي مدحة له وفضيلة ثابتة فيه وقاعدة معجزته اذ معجزته
العظمى من القرآن العظيم انما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم مع ما منح صلى

الله عليه وسلم وفضل به من ذلك كما قدمناه في القسم الاول ووجود مثل
ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يدارس ولا لقن مقتضى العجب ومنتهى
العبر ومعجزة البشر وليس في ذلك نقيصة اذ المطلوب من الكتابة والقراءة
المعرفة وانما هي آلة لها وواسطة موصلة اليها غير مرادة في نفسها فاذا حصلت
الثمرة والمطلوب استغني عن الواسطة والسبب والامية في غيره نقيصة
لانها سبب الجهالة وعنوان الغباوة فسبحان من باين امره من امر غيره وجعل
شرفه فيما فيه محطة سواه وحياته فيما فيه هلاك من عاداه هذا شق قلبه واخراج
حشوته كان تمام حياته وغاية قوة نفسه وثبات روعه وهو فيمن سواه
منتهى هلاكه وحتم موته وفنائه وهلم جرا الى سائر ما روي من اخباره وسيره
وتقلله من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب وتواضعه ومهنته في اموره وخدمته
بيته زهدا ورغبة عن الدنيا وتسويته بين حقيرها وخطيرها لسرعة فناء امورها
وتقلب احوالها كل هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرناه فمن اورد شيئا
منها مورده وقصد بها مقصده كان حسنا ومن اورد ذلك على غير وجهه وعلم
منه بذلك سوء قصده لحق بالفصول التي قدمناها وكذلك ما ورد من اخباره
واخبار سائر الانبياء عليهم السلام في الاحاديث مما في ظاهره اشكال يقتضي
امورا لا تليق بهم بحال وتحتاج الى تأويل وتردد احتمال فلا يجب ان يتحدث
منها الا بالصحيح ولا يروى منها الا المعلوم الثابت ورحم الله مالكا فلقد كره التحدث
بمثل ذلك من الاحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى وقال ما يدعو الناس
الى التحدث بمثل هذا فقيل له ان ابن عجلان يحدث بها فقال لم يكن من الفقهاء و
ليت الناس وافقوه على ترك الحديث بها وساعدوه على طيها فاكثرها ليس تحته
عمل وقد حكي عن جماعة من السلف بل عنهم على الجملة انهم كانوا يكرهون الكلام